

وقف أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة بعد انكساره أمام جيوش الملك فرديناند والملكة إيزابيلا على شاطئ الخليج الرومي تحت ذيل جبل طارق قبل نزوله إلى السفينة المعدة لحمله إلى أفريقيا، وقد وقف حوله نساؤه وأولاده وعظماء قومه من بني الأحمر، فألقى على ملكه الذهاب نظرة طويلة لم يسترجعها إلا مبلة بالدمع، ثم أدنى رداءه من وجهه وأنشأ يبكي بكاءً مرّاً، وينشج نشيجاً محزناً حتى بكى من حوله لبكائه، وأصبح شاطئ البحر كأنه مباحة قائمة تتردد فيها الزفرات، فإنه لواقفٌ موقفه هذا وقد ذهل عن نفسه وموقفه إذ أحس هاتفاً يهتف باسمه، فرفع رأسه فإذا شيخٌ ناسكٌ متكئٌ على عصاه واقفٌ على باب مغارةٍ من مغارات الجبل المشرف عليه ينظر إليه ويقول: «نعم، لك أن تبكي أيها الملك الساقط على ملكك بكاء النساء، فإنك لم تحتفظ به احتفاظ الرجال. إنك ضحكت بالأمس كثيراً، فابك اليوم بمقدار ما ضحكت بالأمس، فالسرور نهار الحياة والحزن ليلها، ولا يلبث النهار الساطع أن يعقبه الليل القاتم. لو أن ما ذهب من يدك من ملكك ذهب بصدمةٍ من صدمات القدر، من حيث لا حول لك في ذلك ولا حيلة، فابك عليه بكاء النادم المتفجع الذي لا يجد له عن مصابه عزاءً ولا سلوى. ولا يريد بأحدٍ من الناس في شأنٍ من الشئون شراً ولا ضيراً، ولكن الناس يأبون إلا أن يقفوا على حافة الهوة الضعيفة فتزل بهم أقدامهم، ويمشوا تحت الصخرة البارزة المشرفة فتسقط على رؤوسهم. لم تقنع بما قسم الله لك من الرزق، وما زال يضرب أحدهما بالآخر حتى سال تحت قدميكما قلباً من الدم فغرقتما فيه معاً. لي فوق هذه الصخرة يا بني الأحمر سبعة أعوامٍ أنتظر فيها هذا المصير الذي صرتم إليه، وأترقب الساعة التي أرى فيها آخر ملكٍ منكم يرحل عن هذه الديار رحلةً لا رجعة من بعدها؛ لأني أعلم أن الملك الذي يتولى أمره الجاهلون الأغبياء لا دوام له ولا بقاء. وأصبح كل واحد منكم حرباً على صاحبه، فسقتم المسلمين إلى ميادين القتال يضرب بعضهم وجوه بعض، والعدو رابضٌ من ورائكم يترصد بكم الدوائر، ويرى أن كلاً منكم قائدٌ من قواده ينبعث بين يديه لقتال أعدائه، حتى رآكم تتهافتون على أنفسكم ضعفاً ووهناً فاقتحمكم، فما هي إلا جولةٌ أو جولتان حتى ظفر بكم معاً. ستقفون غداً بين يدي الله يا ملوك الإسلام، وسيسألكم عن الإسلام الذي أضعتموه وهبطتم به من علياء مجده حتى ألصقتم أنفه بالرغام، وعن المسلمين الذين أسلمتموهم بأيديكم إلى أعدائهم ليعيشوا بينهم عيش البائسين المستضعفين، وعن مدن الإسلام وأمصارها التي اشتراها آباؤكم بدمائهم وأرواحهم ثم تركوها في أيديكم لتذودوا عنها، فلم تحركوا في شأنها ساكناً حتى غلبكم أعداؤكم عليها، فأصبحتم تعيشون فيها عيش الأذلاء، وتطردون منها كما يطرد الغرباء، فماذا يكون جوابكم إن سئلتهم عن هذا كله غداً؟ ها هي ذي النواقيس ترن في شرفات المآذن بدل الأذان، وها هي ذي المساجد تطأ نعال الصليبيين في تربتها مواقع جباه المسلمين، وها هو ذا المسلم يفر بدينه من مكانٍ إلى مكان، ويلوذ بأكناف الهضاب والشعاب، لا يستطيع أن يؤدي شعيرةً من شعائر دينه إلا في غارٍ كهذا الغار الذي أعيش فيه! ليت المسلمين عاشوا دهرهم فوضى لا نظام لهم ولا ملك ولا سلطان، كما يعيش المشردون في آفاق البلاد، فقد كان خيراً لهم من أن يتولى أمرهم رجال مثلكم طامعون مستبدون يلفون على أعناقهم جميعاً غلاً واحداً يسوقونهم به إلى موارد التلف والهلاك من حيث لا يستطيعون زوداً عن أنفسهم، وما تفعل الفوضى بأمّةٍ ما يفعل بها الاستبداد. يسألكم الله يا بني الأحمر عني وعن أولادي الذين انتزعتموهم من يدي انتزاعاً أحوج ما كنت إليهم، وسقتموهم إلى ميادين القتال ليقاتلوا إخوانهم المسلمين قتالاً لا شرف فيه ولا فخار، حتى ماتوا جميعاً موت الأذلاء الأذنياء، فلا أنتم تركتموهم بجانب أنس بهم في وحشتي وألجأ إلى معונتهم في شيخوختي، ولا أنتم ذهبتم بهم إلى ميدان قتالٍ شريفٍ فأتعزى عنهم من بعدهم بأنهم ماتوا فداءً عن دينهم ووطنهم، فوق هذه الصخرة المنقطعة أبكي عليهم، فأدار وجهه ومشى بقدمٍ مطمئنة يتوكأ على عصاه حتى دخل مغارته وغاب عن العيون، إنما هو صوت العدل الإلهي ينذرني بشقاء المستقبل فوق شقاء الماضي، ثم انحدر إلى سفينته وانحدر أهله وراءه، فسارت السفينة بهم تشق عباب الماء شقاً، ولكنه ما زال يحفظ في ذاكرته من عهد الطفولة تلك الأناشيد الأندلسية البديعة التي كان يترنم بها نساء قومه حول مهده، وتلك المراثي المحزنة المؤثرة التي بكى فيها شعراء الأندلس ذلك المجد الساقط والملك المضاع، فكان كلما خلا إلى نفسه ردد تلك المراثي بنغمة شجية محزنة تستثير عبرته، فلا يزال يبكي وينتحب حتى يشرف على التلف، ثم ليصنع الدهر به بعد ذلك ما يشاء. وكان كلما همَّ بالذهاب إليها قعد به عن ذلك أن وراءه عجوزاً من أهله مريضة، ولا يجد من يعتمد عليه في القيام بشأنها حتى وافاها أجلها، فركب البحر من سبته إلى شاطئ ملقة، ثم انحدر منها إلى غرناطة متنكراً في ثوب طبيبٍ عربيٍّ من أطباء الأعشاب يتنقل في جبال الأندلس وسهولها حتى بلغ ضاحيتها ساعة الأصيل، فرأى الأمواه تنزلق عنه في هدوء وسكون، حتى تصل إلى سفحه فإذا هي حياتٌ بيضاء مذعورة، ثم التفت إلى المدينة فرأى على البعد أبراجها العتيقة الحمراء، وقبابها العالية السماء، فوقف أمام هذا المنظر الجليل المهيب موقف الخاشع المتخضع، وضم إحدى يديه إلى الأخرى، لم يبقَ لي منه إلا وقفة بين يديه كوقفة الثاكل المفجوع بين أيدي الأطلال البوالي، وهم لا مضاجع لهم إلا رمال الصحراء وكثبان الفلوات. تشرف على الأرض الفضاء، وتطل من عيون نوافذها، تدعو الله أن يُعيد إليها

بُناتها وحماها فلا يستجاب لها دعاء. وعلى ضفاف هذه الأنهار كانوا يغدون ويروحون، ثم نظر إلى الأفق فرأى الشمس تنحدر إلى مغربها، ورأى جيش الليل يطارد فلول جيش النهار فيبدها بين يديه تبديداً، فتهاافت على نفسه وهو يقول: «هكذا تدول الدولات وتسقط التيجان، وهكذا تحل الظلمات محل الأنوار، وهكذا تنتشر سحب الموت على وجه الحياة. ثم توسد ذراعه واستغرق في نومه بين وطاء الأرض وغطاء السماء، فلم يستفق حتى مضت دولة الليل، فمشى إلى نهر جارٍ في سفح الجبل فصلى عنده صلاة الفجر، ثم انحدر إلى المدينة يفتش عن خانٍ يأوي إليه، فلم يجد في طريقه من يرشده إلى طلبته حتى بلغ «شنيل»، فمشى على ضفته يتفقد البذور ويتلمس الأعشاب وينتظر يقظة المدينة بعد هجعتها. وإنه لذلك إذ انفتح بين يديه باب قصرٍ عظيم، وإذا فتاة إسبانية خارجة منه قد أسبلت على وجهها خماراً أسود شفافاً، وأرسلت على صدرها صليباً ذهبياً صغيراً، ومشى وراءها غلامٌ يحمل على يده الكتاب المقدس، فلمحته في مكانه فأدهشها موقفه، فدنت منه ورفعت قناعها عن وجهها، فإذا الشمس طالعة حسناً وبهاءً، وقالت له بلسان عربي تخالطه بعض العجمة: «أغريب أنت عن هذا البلد أيها الفتى؟» لقد نزلت به الساعة فلم أعرف طريق الخان الذي يأوي إليه الغرباء، ورأت بين أعطافه مخايل النعمة فأهمها أمره، وأشارت إليه أن يتبعها لتدله على ما يُريد، فمشى بجانبها حتى بلغا موضع الخان، وقالت له: «لا تنسَ أن تزورني أيها الغريب كلما عرضت لك حاجة.» ثم سارت في طريق كنيستها. كما أن السماء في ظلمة الليل تختلف إليها النجوم فتضيء صفحتها، وتمر بها الشهب فتلمع في أرجائها، حتى إذا طلعت الشمس من مشرقها محا ضوءها ضوء جميع تلك النيرات؛ حتى إذا بلغ وأشرق على شمس الحب غربت بجانبها جميع تلك العواطف والأهواء. فقد أصبح الأمير ينظر إلى غرناطة منذ الساعة بعين غير العين التي كان ينظر بها إليها من قبل، ويرى في وجهها صورة الأنس بعد الوحشة، والنور بعد الظلمة، فسكن نائره وبردت جوانحه، وهذأت في نفسه ثورة الغضب التي كانت لا تزال تعتلج بين أضلاعها، فكان إذا مر بمسجدٍ من تلك المساجد التي استحالت إلى كنائس، استطاع أن يقف أمامه هنيهةً علّه يرى الفتاة الإسبانية بين الداخلات إليه أو الخارجات منه، وإذا رأى الصليب مشرقاً على رأس مفندةٍ ذكر الصليب الذهبي الجميل الذي رآه على صدرها يوم اللقاء، فافتقر منظر هذا لمنظر ذاك، وإذا سمع أصوات النواقيس ترن في أجواز الفضاء ذكر أنه كان يسمع ذلك الصوت الرنان في الساعة التي رآها فيها، فأنس به وسكنت نفسه إليه. وكذلك أصبح هذا الأمير المسكين ولا همَّ له إلا أن يتمشى صبيحة كل يوم على ضفاف نهر «شنيل» يقلّب نظره في أبواب القصور المشرفة على ذلك النهر؛ علّه يعرف قصر الفتاة فلا يعرفه، وفي وجوه الغاديات والرائحات من الفتيات علّه يراها بينهن فلا يراها، حتى إذا نال منه اليأس انكفأ راجعاً إلى مقبرة آبائه في ظاهر المدينة فجلس بين القبور يذرف دموعاً غزيراً، لا يعلم هل هي دموع الذكرى القديمة أو دموع الذكرى الجديدة! نكب الدهر «فلورندا» منذ عامين نكبةً لا تزال لوعتها متصلةً بقلبها حتى اليوم، فقد كان أبوها رئيس جمعية «العصابة المقدسة» التي قامت في وجه الحكومة أعواماً طويلاً، حتى أعيأ رجال الحكومة أمرها، فسدوا لرئيسها من قتله غيلةً تحت ستار الظلام، فكان لا يراها الرائي إلا ذاهبةً إلى الكنيسة أو عائدةً منها، أو هائمةً على وجهها في مروج غرناطة وبساتينها حتى ينزل ستار الليل فتعود إلى قصرها، فإنها لسائرة يوماً بجانب مقبرة بني الأحمر، ومشت نحوه حتى دانت فاحس بها، فقالت له: «إنك تبكي ملوكك بالأمس أيها الفتى، فقد جفَّ تراب قبورهم لقلّة من يبكي عليهم!» لأنهم كانوا عظماء فنكبهم الدهر، قال: «هل زرت قصورهم وآثارهم التي تركوها من بعدهم في هذه الديار؟» فإذا دمعاً تترجج في مقلتيه وقال: «لا يا سيدتي، كأنما هم يجهلون أن ليس بين الأحياء جميعهم في هذا العالم كله من هو أولى بها مني. قالت: «إن رأيتك غداً في مثل هذه الساعة في هذا المكان ذهبت بك إلى ما تريد منها. ومضى هو إلى خانة بين صبايةٍ تقيمه وتقعه، ثم جاءته في اليوم الثالث فأزارته بعضاً آخر منها، ويختلفان إلى ما شاءا من الرسوم والآثار، فقد كانوا يقولون إذا رأوهما معاً: إن الراهبة الجميلة تحاول أن تهدي الفتى العربي إلى دينها القويم، حتى استحال العطف الذي كانت تضمه له في نفسها مع الأيام إلى حبٍ شديد، وكذلك العطف دائماً طريق الحب، إلا أن أحداً منهما لم يجرؤ أن يكاشف صاحبه بما أضمره له في نفسه، حتى جاء اليوم الذي عزم على زيارة قصر الحمراء، وهو آخر ما بقي بين أيديهما من الآثار، وقف الأمير أمام قصر الحمراء فرأى سماءً تطاول السماء، وهضبة تشرف على الهضاب، وجبالاً تحسر عن قمته العيون، وتضل في جوانبه الظنون، وحصناً تتقاصر عنه يد الأيام، وتهاافت من حوله السنون والأعوام. ثم دخل فإذا ملكٌ كبير، وقبابٌ تفضي إليها النجوم بالأسرار، وصحون مفروشة بألوان الحصباء، وجدران صقيلةً ملساء تصف ما بين يديها من الأشياء، كما تصف المرأة وجه الحسناء، وكأن كل جدارٍ منها لجةً متلاطمة الأمواج، يحبسها عن الجريان لوحٌ من زجاج، وقفت بالحمراء مُستَعْبِراً مُتَعَبِراً أَنْدَبُ أَشْتَاتَا فَلَمْ أَزَلْ أَبْكِي عَلَى رَسْمِهَا هَيْهَاتَ يَغْنِي الدَّمْعُ هَيْهَاتَا كَأَنَّمَا آثَارُ مَنْ قَدْ مَضَوْا نَوَادِبُ يَنْدُبُنْ أَمْوَاتَا حَتَّى وَصَلَ إِلَى السَّاحَةِ الْكُبْرَى، فَرَأَى صَحْنًا مَفْرُوشًا بِبَسَاطٍ مِنَ الْمَرَمَرِ الْأَصْفَرِ، قَدْ دَارَتْ بِهِ فِي جِهَاتِهِ الْأَرْبَعِ أَرْبَعَةَ صَفُوفٍ مِنْ

الأعمدة النحاف الطوال، وتراءت في جوانبه حجرات متقابلات، فعلم أنها حجرات الأمراء والأميرات من أهل بيته، وشعر أن صدره يحاول أن ينشق عن قلبه حزناً ووجداً. وأحس بحاجته إلى البكاء فاستحيا أن يبكي أمام «فلورندا»، فتركها في مكانها لاهيةً عنه بالنظر إلى بعض النقوش، ومشى إلى بعض تلك القاعات حتى داناها، فكان أول ما تناول نظره منها سطرًا مكتوبًا على بابها، فما قرأه حتى صاح صيحةً شديدةً قائلاً: «وا أبتاه!» وسقط مغشياً عليه، فلم يستفق إلا بعد ساعة طويلة، ففتح عينيه فوجد رأسه في حجر «فلورندا»، فقالت له: «لقد كنتُ أعلم قبل اليوم أنك تكاتمني شيئاً من أسرار نفسك، والآن عرفت أنك لست عبد بني الأحمر ولا مولاهم كما تقول، ولكنك أحد أمرائهم، وأنت الساعة في قصر جدك وأمام حجرة أبيك، فما أسوأ حظكم يا بني الأحمر! وما أعظم شقاءك أيها الأمير المسكين!» فلم يجد سبيلاً بعد ذلك إلى كتمان أمره، فأنشأ يقص عليها قصته وقصة أهل بيته، وما صنعت يد الدهر بهم منذ جلوا عن الأندلس حتى اليوم، فلما فرغ من قصته نظر إليها نظرةً منكسرة وقال لها: «فلورندا، إن جميع ما لقيته من الشقاء بالأمس يصغر بجانب الشقاء الذي تدخره لي الأيام غداً. قالت: «وأي شقاءٍ ينتظرك أكثر مما أنت فيه؟» قالت: «وهل تستطيع أن تحب فتاةً مسيحيةً لا تدين بدينك؟» لأن طريق الدين في القلب غير طريق الحب، ثم لا شأن لي بعد ذلك فيما تعتقدين. قالت: «وهل تستطيع أن تحب بلا أمل؟» قال: «ولم لا يكون الحب نفسه غايةً من الغايات التي نجد فيها السعادة إن ظفرنا بها؟ ومتى كان للسعادة في هذه الحياة نهايةً محدودة، فلا نجد الراحة إلا إذا وصلنا إلى نهايتها؟» فبرحا مكانهما ومشيا يتحدثان حتى بلغا الموضع الذي اعتادا أن يفترقا فيه، وسيكون حبي لك بلا أمل كحبك، ولقد فرّق الدين بين جسدنا، فليجمع الحب بين قلوبنا. فأصبحت فوق أرض غرناطة وتحت سمائها طائرَين جميلَين يطيران حيث يصفو لهما وجه السماء، ويقعان حيث يطيب لهما التغريد والتنقير، فليت الدهر ينام عنهما ويتركهما وشأنهما، فإن خسراها خسرا كل شيء. بينما هما جالسان ذات يوم على ضفة جدول من جداول عين الدمع، فاختلف إلى منزلها أياماً يتحبّب إليها ويدعوها إلى الزواج منه، وقالت له: إنني لا أتزوج ابن قاتل أبي. فأنصرف بلوعةٍ لا تزال في نفسه حتى اليوم، فلما رآها جالسةً مجلسها هذا زعم في نفسه أنها ما أوصدت باب قلبها في وجهه إلا لأنها كانت قد فتحته من قبل لذلك الفتى العربي الجميل الذي يجالسها، فذهب إلى قصرها في اليوم الثاني ليفضي إليها بما وقع في نفسه، فخرج غاضباً يحدّث نفسه بأفزع أنواع الانتقام. سليل بني الأحمر ملوك هذه البلاد بالأمس ومؤسسي مجدها وعظمتها، وبناء قلاعها وحصونها، ذليلاً مهاناً إلى محكمة التفتيش متهمًا بمحاولة إغراء فتاةٍ مسيحية بترك دينها، وهي عندهم أفظع الجرائم وأهولها. وقف الأمير أمام قضاة محكمة التفتيش، وهو أن تترك دينك وتأخذ بدين المسيح!» فطار الغضب في دماغه، وفي أي عهدٍ من عهود أنبيائكم ورسلكم أن سفك الدم عقاب الذين لا يؤمنون بإيمانكم، من أي عالم من عوالم الأرض أو السماء أتيتم بهذه العقول التي تصوّر لكم أن الشعوب تُساق إلى الإيمان سوقاً، وأن العقائد تُسقى للناس كما يُسقى الماء والخمر؟ أين العهد الذي اتخذتموه على أنفسكم يوم وطئت أقدامكم هذه البلاد أن تتركونا أحراراً في عقائدنا ومذاهبنا، وألا تؤذونا في عاطفةٍ من عواطف قلوبنا، ولا في شعيرةٍ من شعائر ديننا؟ هو كل ما عندكم من الوفاء بالعهود والرعي للذمم؟! فقد خلا لكم وجه البلاد وأصبحتم أصحاب القوة والسلطان فيها،